العلاقاتُ الدَّلاليَّةُ وتَحوُّلُ المَعنى

(دِراسةٌ دَلاليَّةٌ لِنماذجَ مِن القرآنِ الكريمِ والمُعلَّقَات)

الجِناسُ أُنموذَجًا

محمَّد الشَّحاد، د. مهنَّا الرَّشيد

قِسمُ اللُّغةِ العربيَّة، كليَّةُ الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعةُ إدلب

المُلَخَّص:

يُلقي هذا البحثُ الضَّوءَ على قضية تَحوُّل المعنى بتأثير العلاقات الدَّلاليَّة بين الألفاظ مِمَّا يَكشف العلاقةَ الوثيقةَ بين المُعجميَّة النَّظريَّة والجانب التَّطبيقيّ، كعلاقة (الجناس) بكونه وسيلةً من وسائل تَغيُّر المعنى بين لفظين يجمعهما جَذرٌ لُغويٌّ واحدٌ، ومعنًى مُعجميٌّ مشتركٌ، ثمَّ تتحوَّل دَلالَتهما، وتختلف بفعل التَّحليل السِّيميائيّ القائمِ على ثنائيَّة الدَّالِّ والمدلول، وبفعل التَّموضُعِ حين يكونُ اللَّفظان في سياقٍ.

الكلمات المفتاحيَّة: العَلاقات الدَّلاليَّة – التَّحوُّل – المعنى – الجِناس

Semantic Relations and Meaning Deviation

A Semantic Study of Models from the Holy Qur'an and Mu'allaqat

(Homographs as a Model)

Mouhmad Al_shahhad, Dr. Muhana al_ Rasheed

Department of Arabic language- the Faculty of Arts and Humanities

Abstract:

This research sheds light on the issue of transformation of meaning through the influence of semantic relations between utterances ..which reveals the close relationship between lexical theoretical [notional] and the applied aspect such as the relationship of alliteration as a means of changing the meaning between two utterances united together by the same linguistic root and a common lexical meaning, then their significance transforms and differs due to the semiotic analysis based on the duality of the signifier and the signified and by the act of positioning when the two utterances are in a context.

Key words: Semantic relations - deviation – meaning - alliteration.

أهميَّة البحث:

تَتجلَّى أهميَّةُ هذا البحثِ في الكشف عن العلاقة الوثيقة بين اللَّفظ والمعنى، ودورها في إنتاج الدَّلالة استنادًا إلى السِّياق الذي يضبط المعنى والمَقصَد، و في نفي كلام مَن يعتبرُ أنَّ الجناس زخرفةٌ لفظيَّةٌ يمكن الاستغناءُ عنها، وتقرير مَالَه من تأثيرٍ في تَحوُّل الدَّلالة.

مَنهجيَّة البحث:

اعتمد البحثُ المَنهجَ الدَّلاليَّ، فالدِّراسة تقوم على تَتبُّع الألفاظ في المعاجم اللُّغويَّة، ثمَّ تَتبُّعها في سياقاتٍ مُتعدِّدةٍ للكشف عن الدَّلالات التي يضيفها السِّياق، والوقوف على الفروق والتَّحوُّلات الدَّلاليَّة من سياقٍ إلى آخر.

مفهوم العلاقات الدَّلاليَّة:

من المعلوم أنَّ مفردات اللُّغة وُضِعت للدَّلالة على معانٍ محدَّدةٍ، إذ إنَّ الأصل أن تختصَّ كلُّ مفردةٍ بدِلالةٍ محددةٍ، ويتحدَّدُ كلُّ معنًى بلفظٍ يميِّزه من غيره، لكنَّ اللُّغةَ تنمو مثلَ الكائن الحيّ، وألفاظها ودلالاتها في حراكٍ مستمرٍ، ولهذا لم تستقرَّ الألفاظ والدَّلالات على أصل وضعها، بل حصل نوعٌ من التَّداخل نتيجةً لاستعمال الألفاظ وتداولِها في سياقاتٍ متعدِّدةٍ، لذلك صار لبعض الألفاظ دِلالاتٌ عدَّةٌ، وغدا للمعنى الواحد مجموعةٌ من الألفاظ الدَّالَّة عليه، ولربَّما دلَّتِ اللَّفظة على المعنى وضدِّه في آنٍ واحدٍ، كدلالة لفظة (السَّليم) على السَّليم و اللّديغ تفاؤلًا بسلامته أيضًا.

وقد فطنَ اللُّغويون الأوائل إلى هذه الظَّواهر اللُّغويَّة، فقسَّموا ألفاظ اللُّغة من حيث دلالتها إلى أنواعٍ مختلفةٍ، وقد أشار سيبويهِ –على سبيل المثال– إلى ((اختلاف اللَّفظينِ لاختلاف المعنيين، واختلاف اللَّفظينِ والمعنى واحدٌ، واتِّفاق اللَّفظينِ واختلاف

المعنيين))[1] في بعض كلام العرب، وهذه إشارةٌ منه إلى بعض الظَّواهر الدَّلاليَّة، كالتَّرادف والتَّضادِّ والمشترك اللَّفظيّ، إضافةً إلى غير ذلك من العلاقات الدلالية كعلاقات التَّباين والتَّنافر والاشتمال وعلاقة الجزء بالكلِّ والطباق والجناس.

واصطُلح على تسمية هذه الظَّواهر اللُّغويَّة بالعلاقات الدَّلاليَّة، ويشير هذا المصطلح إلى ((مجموعةٍ من العلاقات الَّتي تجمع أطراف النَّصِّ، وتربط بين متوالياته أو بعضِها))[2]، وقد حظيتْ هذه العلاقات بأهمِّيَّةٍ كبيرةٍ عند أهل اللُّغة، حتَّى خصَّها بعضهم بمؤلَّفاتٍ ودراساتٍ مستقلَّةٍ، حيثُ درسوا كلَّ ظاهرةٍ على حِدَةٍ، وذلك لمساهمتها في تطوُّر اللُّغة ودورها في إعانة المبدعين من أصحاب النُّصوص اللُّغويّة على التَّفاعل مع الجماهير بأساليبَ جماليَّةٍ، تعكسُ قدرتَهم الفنِّيَّة من جانبٍ، وتبرز جماليَّة هذه الظَّواهر اللُّغويَّة الَّتي تمتازُ بها اللُّغة العربيَّة من جانبٍ آخرَ.

تُعِينُ هذه العلاقات الدَّلاليَّة مرسلَ النَّصِّ على التَّواصل الجماليّ مع المستقبلين، وبها تزداد درجة التَّفاعل الدَّلاليّ بين أجزاء الكلام أو شيفرات النَّصِّ، ليغدوَ أكثرَ تماسكًا من حيث بنيته وتأثيرًا في المتلقِّي من حيث دِلالته لأنَّ التَّفاعل الدَّلاليَّ المنسجمَ بين شيفرات النَّصِّ يقود إلى تفاعلٍ دلاليّ بين المرسل والمتلقِّي أيضًا، وعندما يرتكز النَّصُّ ((في بنائه على مجموعة العلاقات الدَّلاليَّة الَّتي تتجلَّى في متواليات، وتتلاحمُ في بناءٍ منطقيّ مُحكَمٍ سواءً كان ذلك على مستوى البنيةِ السَّطحيَّةِ أو البنيةِ العميقةِ))[3] تُنشِّط درجة التَّفاعل بين المرسِل والمتلقِّي أيضًا، وبفضل النِّظام الَّذي تخضعُ له اللُّغة، ويربط بين عناصرها، ويؤلِّف بين مستوياتها، تتولَّد الدَّلالات، وتتعدَّد المعاني، ممَّا يسهمُ في فَهم الكلامِ على الوجه الَّذي حُمِل عليه.

ترتبط العلاقاتُ الدَّلاليَّة بنموِّ اللُّغةِ وتطوُّرِها ارتباطًا وثيقًا، فهي تؤثِّر في تطوِّر اللُّغة، وتتأثَّر به في وقتٍ واحدٍ، وينتج عن ذلك حراكٌ دلاليٌّ يسهم في اتِّساع

اللُّغة، ويزيد التَّفاعل بين الدَّالِ بوصفه مجموعةَ أصواتٍ لغويَّةٍ والمدلولِ بوصفه مفهومًا يحضرُ إلى الذِّهن عندَ سماعِ أصوات الدَّالِ، وتحظى الأصوات الَّتي تشير إلى أكثر من مدلول واحد بأهمِّيَّةٍ متميِّزةٍ في مجال الخيالِ الشِّعريّ، وهنا تهتزُّ نظريَّة القائلين ((بوجود علاقةٍ طبيعيَّةٍ بين الدَّالِ بوصفه صوتًا لغويًّا ومدلولِه، وأنَّه لا توجد سوى علاقةٍ أحاديَّةٍ ثابتةٍ بين اللَّفظ والمعنى، فكلُّ لفظٍ من ألفاظ أيَّةِ لغةٍ يدلُّ على معنًى واحدٍ لا يتعدَّاه))[4]، والحَقُّ لدينا كثير من ألفاظ اللُّغة، الَّتي تصلح للاستشهاد بها على كثرة دلالة اللَّفظ الواحد وتعدُّد معانيه بتعدُّد السِّياقات، وما أبواب التَّرادفِ والتَّضادِّ والمشترَكِ اللَّفظيّ مع ألفاظ الخصوص والعموم إلَّا ظواهرُ دلاليَّةٌ تكشف خصوبة المعنى في اللَّفظ اللُّغويّ الواحدِ.

يسلِّط هذا البحث الضَّوءَ على ظاهرة الجناس بكونه علاقة دلالية يكشف عنها نظام مفردات اللُّغة العربيَّة المصنَّفة في معاجم العلاقات الدَّلاليَّة أو تحت تأثير الاستعمال والتَّداول في سياقات النُّصوص الإبداعيَّة أو التَّواصل الاجتماعيّ بين المتحدِّثين، وستتَّضح في هذا البحث بعضُ جوانب التَّطوُّر الدَّلاليّ بتأثير الجناس ، وستتكشَّف العلاقة الوثيقة بين المعجميَّة النَّظريَّة والجانب التَّطبيقيّ وفقًا للعلاقات الَّتي تحقِّقها الألفاظ المرتبطة بنسقٍ تعبيريّ أو دلاليّ، وإن استغنت بعض العلاقات الدَّلاليَّة الواضحة عن السِّياقات اللُّغويّة، لتتكشَّف معانيها فيها، كعلاقة التَّضادِّ بين لفظتي اللَّيل والنَّهار، فإنَّ بعضها الآخر لا يستغني عن السِّياق كي تتكشَّف جماليَّاتها فيه، كالجناس مثلًا (موضوع بحثنا)، ويبقى الاستعمال السِّياقيُّ مظهرًا من مظاهر جماليَّة العلاقات الدَّلاليَّة، لأنَّنا لا نتأثَّر باللُّغة المجموعة في أبواب المعاجم وفصولها قدرَ تأثُّرِنا بما ينتقيه المبدع، ويوظِّفه في سياقاتٍ إبداعيَّةٍ جديدةٍ.

الجناس:

الجناس لغةً: ((الجِنسُ الضَّربُ من كلِّ شيءٍ، وهو من النَّاس ومن الطَّير ومن حدود النَّحو والعَروض والأشياء جُملةً، والجنس أعمَّ من النَّوع، ومنه المجانسة والتَّجنيس، ويقال: هذا يجانس هذا، أي يشاكله))[5]، فالجناس في اللُّغة يعني المشابهة والمشاكلة، ذلك أنَّ كلمة إذا شابهت الأخرى فقد وقع بينهما مجانسةٌ، وسمَّي بالتَّجانس والتَّجنيس والمجانسة.

الجناسُ اصطلاحًا:

اهتمَّ الباحثون قديمًا وحديثًا بالجناس، وصنَّفوا فيه بعض المصنَّفات، وهو دليلٌ على أهمّيَّته، والثَّعالبيُّ (ت 875 هـ) من أشهر من صنَّف فيه، وكتابه (أجناس التَّجنيس)، وكتاب الصَّفديُّ (جنان الجناس)، وألَّف شمسُ الدِّين النَّواجيُّ كتابه: (الدُّرُّ النَّفيس فيما زاد على جنان الجناس وأجناس التَّجنيس)، وفي العصر الحديث ألَّف الدُّكتور عليٌّ الجنديُّ كتابه: (فنُّ الجناس)، لاستجلاء خصائص هذا الفنِّ على المستويين: الصَّوتيِّ والدَّلاليِّ، وقد حظي المصطلح بتعريفاتٍ كثيرةٍ، منها: ما عرَّفه العلويُّ بقوله: ((هو اتِّفاق اللَّفظين في وجهٍ من الوجوه واختلاف معناهما.))[6]

وعرَّفه أبو هلالٍ العسكريّ بأن: ((يورد المتكلِّم كلمتين تُجانِسُ كلُّ واحدةٍ منهما صاحبتها في تأليف الحروف))[7]، وقد أورده أكثر أهل اللُّغة والبلاغة على أنَّه تشابه الكلمتين في اللَّفظ مع اختلافهما في المعنى، وقد أوضح ابنُ حجَّة سبب تسمية هذا اللَّون البديعيّ بالجناس، قائلًا: ((سُمِّيَ هذا النَّوع جناسًا لمجيء حروف ألفاظه من جنسٍ واحدٍ، ومادَّةٍ واحدةٍ، ولا يشترط فيه تماثل جميع الحروف بل يكفي في التَّماثل ما تُعرَف به المجانسة))[8]، وعليه يدلُّ المعنى الاصطلاحيَّ للجناس على اتِّفاق الكلمتين في اللَّفظ واختلافهما في المعنى والدَّلالة.

أقسام الجناس:

ينقسم الجناس إلى قسمين رئيسين، يضمُّ كلُّ قسمٍ منهما تقسيماتٍ فرعيَّةً، لسنا بصدد الحديث عنها، إنَّما سيقتصر حديثنا على النَّوعيين الأساسيَّين وهما: الجناس التَّامُّ، والجناس غير التَّامِّ، أو ما يُعرف بمصطلح (الجناس النَّاقص).

الجناس التَّامُّ:

وهو أن يتَّفق اللَّفظان ((في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها، وترتيبها))[9]. ومن أمثلة هذا النَّوع قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الرُّوم:55]. فقد تكرَّرت لفظة السَّاعة مرَّتين، بالحروف نفسها من حيث النَّوع والعدد والهيئة والتَّرتيب، لكنَّ دلالة هذه الحروف اختلفت من كلمة إلى أخرى، فدَلَّتْ كلمة السَّاعة الأولى على يوم القيامة، ودلت الثَّانية على مدَّةٍ من الزَّمان.

الجناس غير التَّام (النَّاقص):

هو الجناس الَّذي تختلف فيه الكلمتان في واحدٍ من أربعة أمورٍ هي: النَّوع، أو العدد، أو الحركات، أو التَّرتيب[10]، ومن أمثلة هذا النَّوع قولُ الحطيئة:[11]

مطاعين في الهيجا مطاعيمُ في الدُّجى بنى لهم آباؤهم وبنى الجَدُّ

فقد جاء التَّجانس بين لفظتي: (مطاعين، مطاعيم)، والاختلاف بينهما في صوتٍ واحدٍ، هما النُّون والميم، وإنْ كانا من مخرجين متقاربين.

الجناس من منظورٍ دلاليٍّ:

إذا كان الجناس عنصرَ تزيينٍ، ومظهرًا من مظاهر الموسيقا النَّاجمة عن عمليَّة التَّجانس بين اللَّفظتين وانسجامهما معًا، فإنَّه يُنتج دلالةً تسهم في تقرير المعنى في ذهن المتلقِّي بما في الجناس من إثارةٍ وتشويقٍ وجرس موسيقيٍّ يساعد على رسوخ

المعنيين في الكلمتين المتشابهتين في الجرس والإيقاع والمختلفتين في المعنى والدَّلالة، وبما يضفيه من حيويَّةٍ على أجزاء النَّصّ الَّذي يَرِدُ فيه، وفي هذا الصَّدد يقول الدَّكتور عليٌّ الجنديُّ: ((فبينما هو يُريك أنَّه سيعرض عليك معنًى مكرَّرًا أو لفظًا مردَّدًا لا تجني منه غير التَّطويل والانقباض والسَّآمة، إذا هو يروغ منك، فيجلو عليك معنى مستخدمًا يغاير ما سبقه كلَّ المغايرة، وإنْ حكاه في نفس الصُّورة وذات المعرض، فتأخذك الدَّهشة لهذه المفاجأة السَّارَّة اللَّذيذة، الَّتي أجْدَّت عليك جديدًا مفيدًا لم يقع في حسابك))[12]

واعتنى الأدباء في العصور المتأخرة بالجناس نظرًا لأهمِّيَّته التَّزيينيَّة والدَّلاليَّة معًا، فالجناس ليس مظهرًا من مظاهر الزَّخرفة اللَّفظيَّة، أو تكرارًا للألفاظ وحسب، وإنَّما هو مظهر دلاليٌّ مهمٌّ، واستُحسن نظرًا لهذه القيمة الدَّلاليّة المضافة إلى قيمته الجرسيَّة الإيقاعيَّة، ولهذا كلِّه يؤدِّي الجناس المعنى بأوضح صورةٍ، وهذا ما يؤكِّده الجرجانيُّ بقوله: ((فإنَّك لا تجد تجنيسًا مقبولًا، ولا سجعًا حسنًا حتَّى يكون المعنى هو الَّذي طلبه، واستدعاه، وساق نحوه)).[13] وذهب الجُرجانيُّ في موضعٍ آخرَ إلى أنَّ ((الألفاظ زينةٌ للمعاني وحليةٌ عليها... ممَّا يفخَّمُ به أمرُ اللَّفظ، وينبُلُ المعنى به ويَشْرفُ))[14]، وأنَّ اللَّفظة بمفردها لا قيمة دلاليَّةً كبيرةً لها، ولكنَّ القيمة تكون في التَّلاؤم والانسجام بين معنى اللَّفظة الأولى ومعنى اللَّفظة الَّتي تليها، والَّذي ((يفضي إلى دلالةٍ مخالفةٍ لدلالة اللَّفظة الواحدة))[15].

وقد أشار ابنُ خلدونٍ في مقدِّمته إلى الفائدة المرجوَّة من هذا الفنِّ، حيث رأى أنَّها تكمن في ((فهم الإعجاز من القرآن، لأنَّ إعجازَه في وفاء الدَّلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقةٌ ومفهومةٌ، وهو أعلى مراتب الكلام))[16]، وعلى هذا فإنَّ

الجناس مصطلحٌ يتَّصل باللَّفظ، أي الصَّوت، الَّذي يمثِّل الوحدة الدَّلاليَّة الصُّغرى، وفيه تبدأ عمليَّةُ التَّفاعلِ بين الدَّلالة المعجميَّة والدَّلالة السِّياقيَّة.

الدّراسة التَّطبيقيَّة:

إنَّ الإفضاء إلى دلالةٍ مغايرةٍ يمكن دراسته ضمن المستوى الدَّلاليّ وفقَ مصطلح العدول، وخروج الألفاظ عن معناها اللُّغويّ، في فنٍّ دلاليّ يلجأ إليه المجنِّس عندما يأتي بتلك الألفاظ المتوافقة والمنسجمة صوتًا، والمختلفة معنًى، ذلك أنَّ كلَّ لفظةٍ كانت تشكِّل قبل التَّجانس دلالةً معجميَّةً منفردةً، ولكن لمَّا اجتمع اللَّفظان نتجت دلالةٌ جديدةٌ، وهذا التَّحوُّل في الدَّلالة ليس إلَّا جانبًا من جوانب التَّطوُّر اللُّغوي الَّذي يكونُ أوضح ما يكون في المستوى الدَّلاليّ، لأنَّه يربط بين اللَّفظ والمعنى، وبين اللُّغة والمجتمع، لذلك ستكون لنا وقفة مع القيمة الدَّلاليَّة المضافة، الَّتي يؤدِّيها الجناس، حيث يشكِّل العدول عن الدَّلالة الأصليَّة ركيزة هذه الدِّراسة، وذلك من خلال أمثلةٍ وردت في القرآن الكريم وشعر المعلَّقات العشر، وبيان أثر ذلك في إنتاج الدَّلالة وتطوُّرها.

وردت المحسِّنات اللَّفظيَّة في فصيح كلام العرب والقرآن الكريم قبل ظهور المصطلحات البلاغيَّة الَّتي تحدِّدها، وتضبط معانيها ووظائفها، وهذا طبيعيٌّ، لأنَّ الظَّاهرة الفنِّيَّة تنشأ قبل نشأة التَّنظير فيها، لذلك جاءت مصنَّفات البيان والبديع والمعاني فيما بعد، لتشرح جماليَّات هذه الظَّواهر البلاغيَّة–الدَّلاليَّة في لغة العرب، لذلك أردت الوقوف على أثر هذه الظَّاهرة في التَّطوُّر الدَّلاليّ بين شعر المقلَّقات الجاهليَّة والقرآن الكريم معًا، فقد أشرتُ إلى أثر الجناس في الجرس والإيقاع الموسيقيّ من ناحيةٍ أولى، و أثره في رسوخ المعاني وتحوُّل إيحائها نتيجةً لاختلاف المعنى بين الألفاظ المتجانسة من ناحيةٍ ثانيةٍ، فضلًا عن أثر السِّياق الَّذي ترد فيه الجناساتُ المتعدِّدة، والتَّحوُّلات الدَّلاليَّة الَّتي يقود إليها التَّفاعل الدَّلاليُّ بين الألفاظ المتجانسة وغير المتجانسة في سياقها، ويأتي بالجناس التَّامّ في مقدِّمة أنواع الجناس المساهمة في تحوُّلات المعنى، ويشير هذا الجناس إلى لفظٍ واحدٍ بدلالتين مختلفتين، حيث يُذكر اللَّفظ بمعنى، ثمَّ يتكرَّر بمعنى مختلف، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا

وَوَضَعَ الْمِيزَانَ «7» أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ «8» وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ «9» ﴾ [الرَّحمن: 7–8–9]

يبدو الجناسُ في لفظ (الميزان) الَّذي تكرَّرَ ثلاثَ مَرَّاتٍ، وهو مشتقٌّ من المادَّة اللغويَّة (وزن)، وتشير هذه المادَّة اللُّغويَّة إلى معنى التَّعديل والاستقامة،[17] وكذلك يقال: ((للآلة الَّتي يوزنُ بها الأشياء ميزانٌ... وتقول: ليس لفلانٍ عندي وزنٌ، أي ليس له قَدْرٌ لخِسَّتة، والميزان المِقدار))[18]، فالألفاظ في الآيات الثَّلاث مشتقَّةٌ من أصلٍ لغويٍّ واحدٍ، إلَّا أنَّ القرآن استطاع أن يقدِّم لنا دلالاتٍ متباينةً، وهنا تتجلَّى وظيفة العدول عن الأصل المعجميّ، وتتحقَّق وظيفة الجناس في إحداث الأثر في لفتِ انتباه المتلقِّي، وجعله يتوقَّفُ عند هذا الاستعمال.

وقد ذهب عدَدٌ من المفسِّرين إلى أنَّ معنى الميزان في الآية الأولى هو العدل بين العباد والشَّرع الَّذي توزن به الأعمال والأحكام بين النَّاس[19]، وممَّا يرجِّحُ هذا الرَّأيَّ آية في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25]، وفي معنى الآية دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ المراد بالميزان ليس الآلة المعروفة بدليل الفعل (أنزلنا) والعطف على الكتاب، ودليل الإطلاق في قيام النَّاس بالعدل. وفي الآية الثَّانية فإنَّ لفظ الميزان يحمل دلالةً مغايرةٍ، وهي ((عدم الإفراط عن حدِّ الفضيلة والاعتدال، فيلزم الجَوْرَ الموجب للفساد))[20]، ناهيك عن أنَّ لفظ الميزان في الآية جاء مصدرًا ميميًّا بمعنى الوزن، أي التَّقدير والحكم، ومن بين معاني الميزان كما تقدَّم المقدارُ فيكون معنى الآيةِ لا تطغوا في أحكامكم، فتميلوا عن الفضيلة والرَّشاد!

أمَّا في الآية الثَّالثة فقد جاءت دلالة لفظ الميزان بالمعنى المعروف، والنَّهي عن إخسار الميزان نهيٌ عن الطُّغيان فيه، ومدعاةُ ذلك أنَّ ((الأصل في الوزن التَّقدير، فلا تميلوا رغباتكم، ولا تطفِّفوا في الكيل والوزن))[21]، وقد كرَّر الله تعالى لفظ الميزان عنايةً بإقامة العدل بين النَّاس في معاملاتهم، وفي سائر شؤونهم، إذ بدونه لا تستقيم لهم حال، وهكذا يكون الجناس دعامةً قويَّةً في تأكيد المعنى وتوضيحه، بحيث لا يمكن للمتلقِّي أن يهمل ذلك العنصر الجماليَّ الدَّلاليَّ دون أن ينظر في الدَّلالات الَّتي أنتجها ذلك الانسجام اللَّفظيُّ.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ «43» يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ «44» ﴾ [النُّور: 43-44]. فاللَّفظتان (الأبصار_ الأبصار) من أصل لغويٍّ واحدٍ، ((بَصَر به بَصَرًا وبصَّارةً وبِصَارةً وأبصَرَه وتَبَصَّره: نظر إليه هل يُبْصِرَه... وأبصرتُ الشَّيءَ: رأيتُه... ورجلٌ بصيرٌ مُبْصِرٌ: خلاف الضَّرير، فعيل بمعنى فاعلٍ، وجمعه بُصَراء، وحكى اللَّحيانيُّ: إنَّه لبصيرٌ بالعينين))[22]، وفي مقاييس اللُّغة تدور المادَّة اللُّغويَّة على معنى وضوح الأشياء وانجلائها[23]. ففقد حصل الجناس في اللَّفظتين: (الأبصار، الأبصار)، وذلك في تكرارهما في آيتين متتاليتين، ومُتَأمِّلُ هذا السِّياق الَّذي وردتا فيه يدرك حقيقةَ الاختلافِ في دلالةِ كلٍّ منهما، فالآية الأولى في سياق الاعتبار بتكوين السَّحاب وإنزال الغيث، فكان المقام يقتضي التَّنويه بهذا البرق وشدَّة ضيائه حتَّى يكاد يذهب بالأبصار، هذه اللَّفظة الأولى الَّتي جاءت على المعنى الأصليّ، فدلَّت على النَّظر وضعفه وقوَّته، وبما في ذلك من دليلٍ على قدرة الله تعالى.[24]

وفي الآية الثَّانية جاءت لفظة (الأبصار) في مقام التَّدليل على قدرة الله تعالى، وبيان النِّظام البديع لخلق الكون، وكيف يُقلّبُ الله تعالى اللَّيل والنَّهار، ويتعاقبان، ويختلفان طولًا وقصرًا، وفي ذلك دلالةٌ واضحةٌ للاعتبار وخاصَّةً ((لذوي البصائر، والعقول النَّافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسِّيَّة، فالبصير ينظر إلى هذه المخلوقات نظر اعتبارٍ وتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لما أريد بها ومنها، والمُعرِض الجاهل نظره إليها نظرةَ غفلةٍ، بمنزلة نظر البهائم))[25]، ومن هنا يبدو دور التَّفاعل الدَّلاليّ بين ألفاظ الجناس في تطوُّر الدَّلالة وتناميها خلال سياقها، الَّذي أدَّى إلى تنويع مرجعيَّة المُشَار إليه، فمرجعيَّة الأولى في دلالتها على (النَّظر) وذلك على المعنى اللُّغويّ دون عدولٍ عن الأصل، ومرجعيَّة اللَّفظة الثَّانية في دلالتها على (العقول)، وهذا العدول الدَّلاليُّ، واختلاف الدَّلالة نتج عن اختلاف السِّياق، ولولاه لاختفت الدَّلالة التَّجنيسيَّة.

ونسوق مثالًا آخرَ لهذا النَّوع من الجناس التَّامّ، نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: 70]، فقد حصل الجناس بين لفظتي (خيرًا_ خيرًا) في الصِّيغة الاشتقاقيَّة، فالأولى جاءت اسمًا مصدرًا، وجاءت الثَّانية اسم تفضيل، وهذا الاختلاف في الصِّيغة الاشتقاقيَّة حدَّد جهة المدلول والمراد باللَّفظتين، وهما من أصلٍ لغويٍّ واحدٍ يدلُّ على ((العطف والميل، ثمَّ يحمل عليه، فالخير: خلاف الشَّرّ، لأنَّ كلَّ أحدٍ يميل إليه، ويعطف على صاحبه. والخِيَرَة: الخِيَار، والخيرُ: الكرم والاستخارة: أن تسأل خيرَ الأمرين لك، وكلُّ هذا من الاستخارة، وهي الاستعطاف))[26]، إلَّا أنَّ سياق الآية قد انحرف بهما عن الدَّلالة المعجميَّة، فالآية في سياق الحديث عن أسرى بدرٍ، وطلب فيها سبحانه وتعالى من نبيَّه الكريم أن يوجِّه خطابًا ليِّنًا للأسرى بألَّا يأسَوا على ما خسروه من دفع الفدية، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ إن علم أنَّ الإيمان والإخلاص قد تمكَّن من قلوبهم، فسوف يجازيهم خيرًا، وأفضل من

الفداء وأنفع منه، ويضاعفه لهم في الدُّنيا، ويثيبهم في الآخرة[27]. وبالسِّياق يتَّضِحُ العدول بلفظ الخير إلى دلالتين جديدتين، هما: الإيمان والإخلاص، ومعنى التَّفضيل الدَّالِّ على التَّفاوت في الدَّرجة والزِّيادة فيها.

والخير من الألفاظ المركزيَّة في القرآن الكريم، حيث ورد ما يقرب من مئةٍ وثمانين مرَّةً، وقد ورد مقابلًا لمعنى الشَّرِّ، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ «7» وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ «8» ﴾ [الزَّلزلة: 7–8]، وورد مقابلًا للضرِّ، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17]

أمَّا من حيث الدَّلالة فنلحظ عدولًا دلاليًّا عن دلالته المركزيَّة، تبعًا للسِّياقات الَّتي وردت فيها لفظة الخير، ومن ذلك دلالته على المال، نحو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 180]، والآية في سياق توزيع الإرث على من يرثُ المتوفَّى، فيكون الخير كما قال القرطبيُّ: ((المال من غير خلافٍ))[28]، وعلى هذا المعنى جاء أكثر استعمال لفظ الخير في القرآن الكريم.

ودلَّ لفظ الخير على الطَّعام أيضًا، نحو قوله تعالى على لسان موسى عليه السَّلام: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]، قال أهل اللُّغة: ((اللَّام بمعنى (إلى)، يقال: هو فقيرٌ له، وهو فقيرٌ إليه، يقول: إنِّي لما أنزلت إليَّ من خيرٍ، أي: طعامٍ، فقيرٌ محتاجٌ، كان يطلب الطَّعام لجوعه))[29]، والآية في سياق سقاية موسى عليه السَّلام لامرأتين طلبتا منه ذلك، فسقى دون أن يطلب أجره منهما، حتَّى تعبَ، وجاعَ، وهو في هذه الحال دعا ربَّه أن يرزقه خيرًا، ولا سيَّما الطَّعام.

ويرد أيضًا لفظ الخير للدَّلالة على القوَّة، نحو قوله تعالى في حقِّ مشركي العرب: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدُّخان: 37]

قال البغويُّ: ((يعني أقوى وأشدَّ، وأكثر من قوم تبَّعٍ))[30]، وقال ابنُ عاشورٍ: ((المراد بالخيريَّة التَّفضيل في القوَّة والمنعة))[31]، وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: 43].

وكذلك تدلُّ لفظة الخير على العبادات والطَّاعات، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 73]، قال القرطبيُّ: ((أي أن يفعلوا الطَّاعات))[32].

وفي حكاية قصة شعيبٍ عليه السَّلام مع قومه، في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: 84]، يدلُّ لفظ الخير على حُسْنِ الحال، الَّذي يكون شاملًا لكلِّ أنواع الخير الدُّنيويِّ، وهذا ما يؤكِّده ما جاء في تفسير الطَّبريِّ يدخل في حيز الدُّنيا: المال وزينة الحياة الدُّنيا، ورخص السِّعر، ولا دلالة على أنَّه عنى بذلك بعض خيرات الدُّنيا دون بعض، فذلك على كلِّ معاني خيرات الدُّنيا[33]، وقال ابن عاشورٍ: ((الخير حسن الحالة))[34].

ومن العدول عن المعنى اللُّغويِّ للفظ الخير دلالته على القرآن، نحو قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النَّحل: 30]، والمراد بلفظ (خيرًا) ههنا هو القرآن

الكريم، الَّذي أنزل هدى للنَّاس[35]، وفي قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمن: 70] دلالةٌ على النِّساء أو الحور العين، وهنَّ في خير الأخلاق، إضافةً إلى ذلك جمال الوجه وحسنه، فكأنَّهنَّ جمعن جمال الخَلْقِ والخُلُقِ، وهذا ما ذهب إليه المفسِّرون[36].

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: 32] فإنَّ العرب تُسمِّي الخيل خيرًا، لما فيها من الخير والنَّفع، قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الخيلُ معقود بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة))، ولأنَّها من جملة المال الَّذي هو خيرٌ بتسمية الشَّارع: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 180]، فَعُدِلَ بدلالة لفظ الخير المعجميَّة إلى الدَّلالة على الخيل[37].

يلفت الجناس التَّامُّ بجرسه الموسيقيّ المكرَّر الانتباه إلى التَّطوُّر الدَّلاليّ بين الألفاظ المتجانسة، وينشِّط السِّياق حركة التَّفاعل الدَّلاليّ في النَّصّ، ليرصد المتلقِّي المعاني الجديدة والدَّلالات المتطوِّرة في سياقاتها القرآنيَّة المتعدِّدة. ويتجاوب الجناس النَّاقص مع الجناس التَّامّ في تنشيط الحراك الدَّلاليّ في النَّصّ، وإن اختلف عن الجناس التَّامّ في بعض التَّفاصيل، فقد أشرنا إلى اختلاف اللَّفظين المتجانسين في واحدٍ من أمورٍ أربعةٍ في الجناس النَّاقص، وهي عدد الحروف، أو نوعها، أو حركتها، أو ترتيبها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ «72» فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ «73» ﴾ [الصَّافَّات: 72-73]، نلاحظ التَّجانس بين لفظي (منذرِين- منذرَين)، اللَّذين يجمعهما جذر لغويٌّ واحدٌ، فيقال: (نَذِرَ بالشَّيء، وبالعدوّ، بكسرِ الذَّال، نذرًا: عَلِمَه، فَحَذِرَه وأنذره بالأمر إنذارًا ونذرًا، ... وأنذره: خوَّفه وحذَّره))[38]، وفي

مقاييس اللُّغة ((نذر: النُّون والذَّال والَّراء كلمةٌ تدلُّ على تخويف أو تخوُّف، منه الإنذار: الإبلاغ، ولا يكاد يكون إلَّا في التَّخويف، ... والنَّذيرُ: المنذِرُ، والجمع النُّذر والنُّذْر))[39].

نتج الجناس بين اللَّفظين عن الاختلاف في شكل الحروف أو حركتها، فانحرفت بذلك هيئة اللَّفظ عن الآخر، وأثَّر اختلاف الحركات في دلالة اللَّفظين، حيث جاء اللَّفظ الأوَّل (منذِرين) فكانت حركة الذَّال الكسرة، وجاء اللَّفظ على صيغة اسم الفاعل، بما يتناسب مع سياق الآية الكريمة، الَّتي تشير إلى سُنَّةِ الله في خلقه في إقامة الحُجَّة عليهم فأرسل إليهم رسلًا يبلِّغونهم ويخوِّفونهم عذاب الله وحسابه، ويحذِّرونهم ما سيحلُّ بهم، وخصَّ المرسَلين بوصفِ المنذِرين لمناسبة المتحدَّث عنهم وأمثالهم[40]، وأمَّا اللَّفظ الآخر فجاء على صيغة اسم المفعول (منذَرين) بفتح الذَّال، وهم الَّذين أُنذِروا من قِبل الرُّسل، وحُذِّروا كي لا يصيبَهم ما أصاب مَن قبلهم من هلاكٍ وخِزيٍ وفضيحةٍ[41]. ونجم عن اختلاف الحركات تباينٌ دِلاليّ، فكان الانتقال من حركة الكسرة في كلمة (منذِرين) الَّتي تتناسب مع مهمَّة الرُّسل الشَّاقَّةِ في تبليغ النَّاس وإنذارهم إلى حركة الفتحة الَّتي هي حركةٌ خفيفةٌ توحي باللُّطف، وهو ما يتناسب مع إنذار النَّاس، والمثابرة على هدايتهم وتحذيرهم من الخطأ.

وينتج عن الاختلاف في عدد الحروف بين اللَّفظين جناسٌ ناقصٌ، وقد يؤدِّي نقص الحرف إلى اختلاف الجذر اللُّغويّ بين اللَّفظين، وقد تعود الكلمتان المتجانستان إلى جذرٍ لغويّ واحد برغم اختلافهما بحرفٍ واحدٍ، ولا سيَّما إن كان الحرف المختلف واحدًا من حروف الزِّيادة، ومن الجناس الَّذي تعود فيه الكلمتان إلى جذرين لغويَّين مختلفين هذا الجناس بين كلمتي: (تنهر_ تقهر)، أمَّا الجناسُ الَّذي تعود فيه الكلمتان المتجانستان إلى جذر لغويّ واحد فقد ورد في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ «26» وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ «27» وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ «28» وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ «29» إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ «30» ﴾ [القيامة: 26–30]، واللَّفظان المتجانسان في الآية

هما: (السَّاق والمساق)، ويجمعهما جذرٌ لغويٌّ واحدٌ (سَوَقَ)، الَّذي تدور معانيه حول حَدْوِ الشَّيءِ، والانقياد[42]، ونلحظ أنَّ اللَّفظ الثَّاني (المساق) فيه حرفٌ زائدٌ، وهو حرف الميم، الَّذي قام بوظيفةٍ دلاليَّةٍ، لأنَّه أزال اللَّبس عن تماثل الكلمتين في دلالتهما، وأظهر العدول عن الدَّلالة المعجميَّة الَّتي أفادها الجذر اللُّغويُّ، فالآيات في معرِض الحديث عن أهوال يوم القيامة، وشدَّة الأمر حينئذٍ، ويموت الإنسانُ فتلتوي إحدى ساقيه على الأخرى، وقيل: تتَّصل الشِّدَّة بالشِّدَّة، شدَّة فراق الدُّنيا بشدَّة إقبال الآخرة، ثمَّ بعد ذلك يُسَاق، وينقاد إلى الله وحكمه، أي المرجع والمآب إلى الله[43]، وبهذا يَعدِل عن المعنى الأصليّ في اللَّفظ الأوَّل ليدلَّ على السَّاق الَّتي هي عضوٌ من جسم الإنسان، بينما تحوَّلت الكلمة الثَّانية (المساق) عن الدَّلالة المركزيَّة في التَّوجُّه والانقياد، وبمثل هذه الطَّريقة ورد كثيرٌ من الجناس في آيات القرآن الكريم، فأسهم في حلاوة الجرس الموسيقيّ، ونشَّط حركة التَّفاعل الدَّلاليّ، التَّي قادت بدورها إلى تطوُّرات دلاليَّة كشفت عن جمال الأسلوب القرآنيّ، وبهاء الصُّورة اللُّغويَّةِ فيه، كما منحت هذه الألفاظ سياقاتها قوَّةً إيقاعيَّةً وفصاحةً محبَّبةً، نشَّطت في مجملها ذهنَ المتلقِّي، الَّذي راح يتنقَّل بين الدَّلالات المتنوَّعة، ويسبغ على النَّصّ تفاعلًا جماليًّا ودلاليًّا، دلَّ على أنَّ متعة التَّلقِّي والتَّفاعل مع النَّصّ الجميل، لا تقلُّ حلاوةً عن متعة إرساله وتوليف تفاصيله في سياقاتٍ دلاليَّةٍ منسجمةٍ.

ويحضر الجناس في المعلَّقات العشر، وتتجلَّى أهمِّيَّته في زيادة وحدة النَّصّ الشِّعريّ العضويَّة، وربط الشَّكل بدلالة المضمون وإيحاءاته السِّياقيَّة، وقد عوَّضت كثافة الجناس الاشتقاقيُّ في المعلَّقات عن ضآلة الجناس (التَّامّ والنَّاقص) فيها، ومن أشهر الشَّواهد على الجناس التَّامّ في معلَّقات الشِّعر الجاهليّ قول زهيرٍ:[44]

ومن هاب أسباب المنايا ينله ولو رامَ أسبابَ السَّماء بسلَّم

ويبدو واضحًا اتفاق كلمتي (أسباب_ أسباب)، في الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها، مع اختلافٍ في المعنى، وإنْ كانا من مادَّةٍ لغويَّةٍ واحدةٍ تشير في أصلها المعجميّ إلى معنى القَطع، الَّذي اشتقَّت منه الدَّلالة على الحبلِ أيضًا، نحو قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحجُّ: 15]، والمعنى: فليمدد حبلًا في سقفه، ثمَّ ليقطع، أي ليمدَّ الحبل حتى ينقطع، فيموت مختنقًا[45].

أمَّا الدَّلالة السِّياقيَّة فهي من السَّبب، وهو ((كلُّ شيءٍ يُتوصَّل به إلى غيره، أو كلِّ شيءٍ يُتوسَّل به إلى شيءٍ غيره، وقد تسبَّب إليه، والجمع أسبابٌ، وكلُّ شيءٍ يُتَوصَّل به إلى الشَّيء فهو سببٌ، وجعلتُ فلانًا لي سببًا إلى فلانٍ في حاجتي، أي وصلةً وذريعةً))[46]، وعليه فقد دلَّت كلمة (أسباب) الأولى على مسبِّبات الموت، فيما دلَّت الثَّانية على الطُّرق، الَّتي تؤدِّي إلى السَّماء، وقد يحاول من خاف الموت وأسبابه الصُّعود إلى السَّماء فرارًا منها، زاعمًا أنَّ ذلك سينجيه، ويجدي نفعًا، وبذلك يشكِّل الجناس بين المفردتين علاقةً دلاليَّةً، حين تتغاير دلالةُ كلٍّ منهما، وحين يسهم السِّياق في العدول عن معناهما الأصليّ.

وفي مثالٍ آخرَ عن الجناس في معلَّقات الشِّعر الجاهليّ فقد قال الحارث بن حِلِّزة:[47]

أجمعوا أمرهم بليلٍ فلمَّا أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

يتَّحدث الشَّاعر عن أعدائه الَّذين أحكموا أمرهم، وخطَّطوا للمعركة في اللَّيل، وخصَّ اللَّيل، لأنَّه تتفرَّغ فيه الأذهان، فما إنْ جاء وقتُ الصَّباحِ حتَّى عَلَتْ أصواتهم، وأصوات الخيل والإبل، وهم على أُهبةِ الاستعداد، وقد وقع الجناس في قوله: (أصبحوا_ أصبحت)، وهذا يسمَّى الجناس التَّامَّ لتوافقه في الأمور الَّتي أشرنا إليها آنفًا، وهذا يعني التَّوافق في أصل المادَّة اللُّغويَّة (صبح)، حيث جاء: ((الصَّاد والباء والحاء أصلٌ

واحدٌ مطَّردٌ، وهو لونٌ من الألوان، قالوا: أصله الحُمْرة. قالوا: وسمِّي الصُّبح صبحًا لِحُمْرته، كما سمِّي المصباح مصباحًا لحمرته. قالوا: ولذلك يقال: وجهٌ صبيحٌ، والصَّباح: نور النَّهار، وهذا هو الأصل ثمَّ يُفرَّع))[48].

وقد أدَّى هذا الجناس وظيفةً دِلالية عبَّرت عن معنيين مختلفين، الأوَّل منهما نور الصَّباح، والثَّاني بمعنى صيرورة الأمر وتحوُّله، وقد كشف هذا الاستعمال عن التَّجاوب بين هاتين الدَّلالتين، وأبرز حركة التَّحوُّل في المعنى المعجميّ، ونشَّط حركة العدول عنه.

وتتنوَّع شواهد الجناس النَّاقص في المعلَّقات العشر، ليشكِّلَ الجِناسُ فيها مجالًا تتولَّد منه المعاني السَّياقيَّة، من ذلك قول لبيدٍ:[49]

مِن مَعشَـــرٍ سَـــنَّت لَهُم آباؤهُم وَلِكُـلِّ قَومٍ سُـــنَّـــةٌ وَإِمـامُهـا
إنْ يفزعوا تُلقَ المغـافر عنـدهم والسِّـــنُّ يلمع كـالكواكـب لامهـا

وقع الجناس بين كلمتي (سُنَّة_ السِّنّ)، حيث اتَّفقت بنية هاتين الكلمتين اللُّغويَّة، كما اتَّفقتا في الدَّلالة المعجميَّة، والَّتي تدلُّ على ((جريان الشَّيء واطِّراده في سهولةٍ، والأصل قولهم: سُنْتُ الماء على وجهي أسنُّه سنًّا، إذا أرسلته إرسالًا، ثمَّ اشتقَّ منه رجلٌ مسنون الوجه، كأنَّ اللَّحم قد سُنَّ على وجهه))[50]، وهذا التَّعاضد في الشَّكل والدَّلالة اللُّغويَّة يؤثِّر فيه السِّياق أيَّما تأثيرٍ، ويسهم في العدول عن المعنى الأصليّ إلى دلالاتٍ جديدةٍ، وهذا يعني أنَّ الَّذي أعطى الجناس القيمة ليس التَّماثل اللَّفظيَّ بمفرده، ولا البنية الموسيقيَّة ذاتها، وإنَّما التَّفاعل الدَّلاليُّ بين ذلك كلِّه، لأنَّه يُنتج دلالاتٍ تساعد على الفهم والتَّأويل، وفي البيتين السَّابقين نجدُ تحوُّلًا عن المعنى الأصليّ، لتدلَّ كلمة (سنُّةٌ) على الطَّريق والمنهج والعادة، فممدوحُ الشَّاعر ينتسب إلى معشرٍ اتَّخذوا الأفعال الحميدة والخصال عادةً فيهم، في حين دلَّت كلمة (السِّنّ) على

الأسنَّةِ جمع سِنان، وهذا المعنى يستلزمه سياق البيتين بل سياق النَّصِّ كلِّه، وفيه متابعةٌ لمعنى البيت الأوَّل وتوكيدٌ على تلك المناقب الحميدة، فهم أيضًا يهبُّون لاستغاثة من يستجير بهم، وتكون سيوفهم جاهزةً ودروعهم الَّتي تسطع كالنُّجوم في اللَّيل.[51]

ومن شواهد الجناس النَّاقص أيضًا، قول النَّابغة:[52]

فحسَّبوه فألفوه كما حَسَبَتْ تسعًا وتسعين لم تنقص ولم تزدِ

تتقارب كلمتا (حسَّبوه_ حَسَبَت) في اللَّفظ، مع وجود اختلافٍ في عدد الحروف، وكذلك نجد أنَّها من أصلٍ لغويٍّ واحدٍ هو (حَسَبَ)، وهو في معناه اللُّغويُّ العدُّ والإحصاء[53]، وهذه الدَّوالُّ المتشابهة أدَّت مدلولاتٍ مختلفةً حين تشكَّلت فيما بينها علاقة جناسيَّة في سياقٍ يستدعي تحوُّل الدَّلالة عن مرادها المركزيّ، ليفهم المعنى بوضوحٍ، فحافظت الكلمة الأولى على معنى العدِّ والإحصاء، في حين نجد تحوُّلًا في معنى الكلمة الثَّانية لتشير إلى دلالة الظَّنِّ والزَّعم، وقرينة هذا التَّحول كما ذكرناه هو السِّياق أوَّلًا، فإنَّ القومَ قد عدُّوا الحمام الَّذي رأته زرقاءُ اليمامةِ، وزعمت عدده، فوجدوه كما زعمت، والقرينة الثَّانية أنَّ للبيت روايةً ثانيةً وهي ((كما زعمت)).[54]

ويبدو حضور جناس الاشتقاق لافتًا في شعر المعلَّقات، وهو تجانس اللَّفظين في تأليف الحروف مع تقاربهما في الدَّلالة، لأنَّ الثَّاني مشتقٌّ من الآخر أساسًا[55]، وأمثلته كثيرةٌ، منها: (الخليُّ– الخلاء)، و(الواهب– المواهب)، و(يجهلن – نجهل)، و(أحمَّ – حمامها)، و(قدَّمها– إقدامها)، و(حدثٍ– أحدثته)، وغير ذلك الكثير، ونمثِّل لشاهدٍ كي تتَّضح الفكرة أكثر، من ذلك قول عمرِو بن كلثومٍ:[56]

ومأكمةٍ يضيق البابُ عنها وكشحًا قد جننتُ به جنونا

فكلمتا (جننت– جنونًا) من الجناس الاشـتقاقيّ، إذ ترجع الكلمتان إلى أصـلٍ لغويّ واحدٍ، وتتقارب دلالتهما، حيث ذُكِرَ الفعل متبوعًا بمصـدره، وذلك يوضِّـحُ المعنى ويؤكده.

وهذا النَّوع من الجناس يتصـل بالعدول الصَّـرفيّ الَّذي تحدثنا عنه آنفًا، ودوره في إحداث أثرٍ في معنى الألفاظ، وتحقيق تحوُّلٍ دلاليٍّ واضـحٍ، فالجناس المعتمد على الاشـتقاق ليس ضـعيفًا لأنَّ المعنى فيه تغيَّر، وليس تغيَّرًا في شـكل الكلمة فحسـب، وهو كثيرُ الورودِ في القرآن الكريم، فتتسـم تلك الألفاظ بالتَّجنيس والاختلاف في التَّصـريف، وليس كما ذهب إليه العسـكريُّ من أنَّ: ((ليس في هذه الألفاظ تجنيسٌ، وإنَّما اختلفت هذه الكلمات في التَّصـريف))[57]. وبذلك يتضـح أنَّ الجناس أسلوبٌ بلاغيٌّ مهمٌّ له دوره الإيقاعيُّ والموسيقيُّ والدِّلاليُّ أيضًا.

وفي خاتمة مبحث الجناس نسـتطيع القول: إذا كان الجناس تشـابهَ لفظين في النُّطق، واختلافهما في الدَّلالة، فإنَّ ذلك بسبب حصـول تناغمٍ قائمٍ بين الصَّـوت والمعنى، وهذا التَّناغم له أهميَّة في التَّأثير الإيجابيّ والجماليّ على المتلقِّي وكسـبِ تفاعله، ويمكن ذلك حين يأتي الجناس في السِّـياق دون تكلُّفٍ فيُضـفي على دلالة المعنى بعدًا دلاليًّا جديدًا يمنحُ المتلقِّي فضـاء الإصـغاء، والتلذُّذ بالنَّصِّ الَّذي يزخر بالألفاظ المتجانسـة ،الذي بدوره يعطي المعنى ظلالًا وإيضـاحًا، فهو يتعلَّق بجانبين أحدهما: دلاليٌّ يرتبط بوضـوح المعنى، ولا سـيَّما أنَّ اللَّفظين المتجانسـين يجمعهما جذرٌ لغويٌّ واحدٌ، ومادَّةٌ لغويَّةٌ واحدةٌ، وهذا التَّكرار في اسـتعمال الجذر الواحد يعين على رسـوخ اللَّفظ وما يدلُّ عليه في الذِّهن، والجانب الآخر هو الجانب الصَّـوتيُّ أو الموسـيقيُّ الَّذي يسـبِّبه التَّقارب والتَّآلف بين الألفاظ المتجانسـة، فنلحظ عندها إيقاعًا جميلًا معَ رشاقة اللَّفظ، ووضوح الدِّلالة.

ومن الملاحظ أنَّ الجناس خاصَّةً في القرآن لم يأتِ على أنَّه حِليةٌ لفظيَّةٌ فحسب، فقد كان له أهمية كبيرةٌ في وضوح الدَّلالة في بعد إعجازيٍّ، وظهر الجناس في النَّص القرآنيّ والشِّعريّ من خلال السِّياق على أنَّه مطلبٌ دلاليٌّ، ومطلبٌ فنّيٌّ حين تأتي الألفاظ المتجانسة في مواقعها فكان المعنى هو الَّذي يستدعي تلك الألفاظ، ويكشف عن تحوُّلها الدَّلاليّ من دلالةٍ مركزيَّةٍ إلى دلالةٍ ثانويَّةٍ سياقيَّةٍ، فتحقّقُ بذلك جمالَ اللَّفظ، وقوَّةَ المعنى.

حواشي البحث:

1. سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السَّلام هارون، مكتبة الخانجيّ، ط1، 1988، مجلد 1 ، ص: 24.
2. خطَّابي، محمَّد، لسانيات النَّصِ، المركز الثَّقافيُّ العربيُّ، بيروت، ط1، 1991م، ص: 268.
3. عيسى فوزي، النَّصُّ الشِّعريّ وآليَّات القراءة، دار المعرفة الجامعيَّة الإسكندريَّة، 2006، ص: 8.
4. نهر، هادي، علم الدَّلالة التَّطبيقيُّ في التُّراث العربيّ، دار الأمل للنَّشر والتَّوزيع، الأردن، ط1، 2007، ص: 196.
5. ابن منظور، محمَّد بن مكرم بن عليٍّ جمال الدِّين، لسان العرب، طبعة جديدة منقَّحة، اعتنى بتصحيحها محمَّد عبد الوهَّاب ومحمَّد الصَّادق العبيدي، دار إحياء التُّراث العربيّ، بيروت، ط3، 1999م. ج2، ص: 383.
6. العلويُّ، يحيى بن حمزة (ت 749هـ): الطِّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلميَّة، بيروت، د. ط، 1982، ج2، ص: 356.
7. العسكريُّ، الصِّناعتين، تحقيق وضبط الدُّكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 1981، ص: 353.
8. الحمويُّ، ابن حجّةٍ، أبو بكرٍ عليٌّ (ت 837هـ): خزانة الأدب وغاية الأرب بخطِّ عليٍّ بن محمَّد، دار الكتب المصريَّة، 1957، ص: 14.
9. القزوينيُّ، جلال الدِّين محمَّد (ت 739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع، تعليق إبراهيم شمس الدِّين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 2002، ص: 288.

10. يُنظر: الخويسكيُّ، زين كامل، والمصريُّ، أحمد محمود: فنونٌ بلاغيَّةٌ، دار الوفاء، الإسكندريَّة، ط1، 2006، ص: 148.
11. ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السُّكَّيت (ت246هـ)، تحقيق مفيد محمَّد قميحة، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 1993، ص: 73.
12. الجنديُ، عليٌّ: فنُّ الجناس، دار الفكر العربيّ، مصر، 1954م، ص: 29، 30.
13. الجرجانيُّ، أسرار البلاغة، قرأه وعلَّق عليه محمود محمَّد شاكر، دار المدنيّ بجدَّة، ط1، 1991م، ص: 11.
14. الجرجانيُّ، أبو بكرٍ عبد القاهر بن عبد الرَّحمن بن محمَّد الجرجانيّ النَّحويّ (ت471 هـ)، دلائل الاعجاز، قرأه وعلَّق عليه محمود محمَّد شاكر، مطبعة المدنيّ، القاهرة، ط3، 1992م ، ص: 263.
15. دلائل الإعجاز، ص: 263.
16. مقدِّمة ابن خلدونٍ، مطبعة مصطفى محمَّد النَّاشر، المكتبة التِّجاريَّة، مصر، ص: 553.
17. ينظر: ابن فارسٍ، مقاييس اللُّغة، تحقيق وضبط عبد السَّلام محمد هارون، دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، دمشق، 1979م ، مادَّة (وزن) ج6، ص: 107.
18. لسان العرب، مادَّة (وزن) ج15، ص: 290.
19. ينظر: السَّعديّ، عبد الرَّحمن ناصر السَّعديّ، تفسير السعدي، قدم له الشَّيخ، عبد الله عبد العزيز بن عقيلٍ والشَّيخ محمَّد الصَّالح العثيمين، حقَّقه واعتنى به، عبد الرَّحمن بن معلَّا اللُّويحق، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ص: 829.
20. تفسير القاسميّ، ج15، ص: 5615.
21. البغويُّ، أبو محمَّد الحسين بن مسعودٍ، معالم التنزيل، حقَّقه وخرَّج أحاديثه محمَّد عبد الله النَّمر وعثمان جمعة خميريَّة، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنَّشر والتَّوزيع، الرِّياض، ط1، 1989م ، مجلد7، ص: 442.
22. لسان العرب، مادَّة (نصر)، ج1، ص: 417- 418.
23. ينظر: مقاييس اللُّغة، مادَّة (نصر)، ج1، ص: 254.
24. ينظر: ابن عاشورٍ، محمد الطَّاهر، التَّحرير والتَّنوير، الدَّار التُّونسيَّة للنَّشر، 1984م ، ج18، ص: 263.
25. تفسير السَّعديّ، ص: 571.
26. مقاييس اللُّغة، مادَّة (خير)، ج2، ص: 232.

27. ينظر: الإمامان: جلال الدِّين المحليّ وجلال الدِّين السِّيوطيّ: تفسير الجلالين، الميسَّر، حققه وعلَّق عليه الدُّكتور: فخر الدِّين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2003م ، ج1، ص: 186.
28. القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردُونيّ، وإبراهيم اطغيش، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، ط2، 1964م ، ج3، ص: 93.
29. تفسير البغويّ، مج6، ص: 201.
30. تفسير البغويّ، مج7، ص: 233.
31. التَّحرير والتَّنوير، ج25، ص: 308.
32. تفسير القرطبيُّ، ج14، ص: 231.
33. ينظر: الطَّبريُّ، محمَّد بن جريرٍ (ت 310هـ)، جامع البيان عن تأويل آيِ القرآن، تحقيق إسلام منصور عبد الحميد وآخرون، دار الحديث، القاهرة، 2010م ، مج، 6، ص: 444_ 445.
34. التَّحرير والتَّنوير، ج12، ص: 137.
35. القرطبيُّ، ج12، ص: 317.
36. ينظر، تفسير السَّعديّ، ص: 831_ 832، والزَّركشيّ، أبو عبد الله بدر الدِّين محمَّد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيَّة، عيسى البابيّ الحلبيّ وشركائه، ط1، 1957م مج، 7، ص: 401.
37. ينظر، أبو حيَّان الأندلسيُّ، تفسير البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 1993م، ج7، ص: 526.
38. لسان العرب، مادَّة (نَذَر)، ج14، ص: 100.
39. مقاييس اللُّغة، مادَّة (نذر)، ج5، ص: 414.
40. ينظر، التَّحرير والتَّنوير، ج، 23، ص: 128.
41. ينظر: تفسير السَّعديّ، ص: 705.
42. ينظر: مقاييس اللُّغة، ج3، ص: 117، والأصفهانيُّ، أبو القاسم الحسين بن محمَّد، (ت: 502هـ) المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمَّد سيد كيلانيّ: دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط5، 1404هـ ، ص: 249.

43. ينظر: الزَّمخشريُّ، جار الله، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشَّاف عن حقائق غوامض التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل، تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد لموجود، الشَّيخ عليّ محمَّد معوَّض، مكتبة العبيكات، الرياض، ط1، 1998، ج6، ص: 271.
44. التَّبريزيُّ، أبو زكريَّا يحيى بن عليّ، شرح المعلَّقات العشر، تحقيق الدُّكتور عمر الطَّبَّاع، مؤسَّسة الكتب الثقافيَّة، بيروت، ط1، 2012م ، ص: 138.
45. ينظر: مقاييس اللُّغة، ج3، ص: 63، ولسان العرب، ج6، ص: 137.
46. لسان العرب، ج6، ص: 139.
47. التَّبريزيُّ، شرح المعلَّقات العشر، ص: 275.
48. مقاييس اللُّغة، مادَّة (صبح)، ج3، ص: 328.
49. التَّبريزيُّ، شرح المعلَّقات العشر، ص: 181.
50. مقاييس اللُّغة، مادَّة (سنَّ)، ج3، ص: 60.
51. ينظر: التَّبريزيُّ، شرح المعلَّقات العشر، ص: 181.
52. التَّبريزيُّ، شرح المعلَّقات العشر، ص: 336.
53. ينظر: لسان العرب، ج، 3 ص: 162، ومقاييس اللُّغة، ج2، ص: 59.
54. التَّبريزيُّ، شرح المعلَّقات العشر، ص: 336، وينظر: مقاييس اللغة، ج2، ص: 59.
55. ينظر: فنُّ الجناس، ص: 57.
56. الزَّوزنيُّ، أبو عبد الله بن الحسين بن أحمد بن الحسين، شرح المعلَّقات العشر، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983م ، ص: 205.
57. الصِّناعتين، ص: 310.